الحفاظ على تراثنا واسترداد ما استلب منه
بين الوعي الآثاري وغيابه

د. علاء الدين أحمد العاني
قسم التاريخ / كلية التربية / جامعة الأنبار

حين تمكن الغرب المستعمر منا، وتداعى علينا تداعي الأكلة على قصعتها، تحكم في الرقاب، وسلب الخيرات، وعبث بالمقدرات، وتفرد بآثارنا يتخير منها ما شاء، مما خف وزنه، وغلا ثمنه، فحمله ليزدان به ويتجمل.

جاس الديار دونما كلل أو ملل، ومن غير حسيب أو رقيب، ينشر هيئات نبش وتخريب لاستفراغ أرضنا الطيبة المعطاء مما تبطنه من آثار،وما كان لهذا الغرب أن يتوقف وقد إزداد شرهاً وصلفاً، ونزف جرحنا ما انفك ينضح.. ماالبحث عن الماضي أراد ولا العلم كما يزعم، وإنما سبر غور أمة ما كبت يوماً كبوة إلا واعقبتها بنهوض وصحوة، تغذ السير نحو مطلع الشمس لتنير الدرب، وتبدد الظلمة، ووضع اليد على سر ديمومتها واستمرارها في البذل والعطاء، لأحداث شرخ أو تذبذب في إنتمائها وولائها لمصدر عزها وقوتها الإسلام، ولقد سجل المستعرب كايتاني في مقدمة ((حوليات الإسلام)) اعترافاً صريحاً ((بأنه إنما يريد أن يفهم سر المصيبة الإسلامية... التي انتزعت من الدين المسيحي ملايين من الاتباع في شتى أنحاء الأرض، ما يزالون حتى اليوم يدينون برسالة محمد [صلى الله عليه وسلم] ويؤمنون به نبياً ورسولاً))(١)

وإذا كانت نظرة بعض مثقفينا إلى الآثار قاصرة، فكيف الحال مع أهلنا في القرن السابع عشر وحتى منتصف القرن المنصرم، وقد انتابت دول الغرب حمى السلب والنهب، وتردي الأوضاع السياسية والاقتصادية، وتفشي الأمية، وانتشار أمراض وأوبئة، وغياب وعي، وغفلة وسذاجة في التفكير، وإن ارتسمت على محياهم معالم شك وريبة لما يحدث.

وما توقف الغرب عند آثارنا المنقولة، تحف فنية ورقم طينية وأختام إسطوانية وما شابه، وإنما تعداها إلى الثابتة، فاجتث بوابة عشتار من جذورها، فككها آجرة آجرة، وحملها معه ليغرزها في تربة غير تربتها، وبيئة غير بيئتها مزهواً يستدر بها وبغيرها أموال النظارة(٢)، والسلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩م)، وإن كنا

(١) تراثنا بين ماضٍ وحاضر للدكتورة عائشة عبد الرحمن، بنت الشاطئ، مصر ١٩٧٠، ص٥١.

(٢)عن بوابة عشتار، ينظر: العراق في التاريخ القديم، د. عامر سليمان، الموصل ١٩٩٣ ص٣٦٩، بوابة عشتار، كولد يفاي، تعريب د. علي يحيى منصور، بغداد ١٩٨٥، نبوخذ نصر الثاني (٦٠٤-٥٦٢ ق.م)، حياة إبراهيم محمد، بغداد ١٩٨٣، ص١٠٤-١٠٦.

(٣)عن موقف السلطان عبد الحميد الثاني من قضية فلسطين، ينظر: السلطان عبد الحميد الثاني، حياته وأحداث عهده، أورخان محمد علي، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص٢٤٧-٢٦٢. الدولة العثمانية، عوامل النهوض وأسباب السقوط، علي محمد محمد الصلابي، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص٦٨٩ وما بعدها.

نكن لشخصه الكريم ولموقفه المبدئي الثابت من قضية فلسطين(٣) كل التجلة والاحترام، وهب إمبراطور ألمانيا وليم (غليوم) الثاني (١٨٨٨–١٩١٨) عام ١٩٠٣ ما لا يملك، واجهة قصر المشتى (يقع القصر على بعد عشرين ميلاً جنوب شرق عمان) فقطعها الألمان، قطعة قطعة، وحملوها معهم ليعيدوا تشكيلها في متحفهم ببرلين(٤).

ومتاحف الغرب، البريطاني وبرلين واللوفر والمتروبوليتان و ...، وقد اعتمدت نهب تراث الشعوب، لو قدر لنا، فرضاً، من استرداد ما استلبته منا من آثار لأصبحت من غير شك خلاءً تنعق فيه الغربان.

وتمادى الغرب في غيه واسترسل فأرسل ضمن إرسالياته التبشيرية والمخابراتية بعض من اهتموا بتراثنا فعكفوا عليه، وتخصصوا فيه، وانتظمت لهم حوله كتب وكتيبات وفصول من كتب ومقالات طبعت بطابعه، وعبرت عن آرائه وأفكاره من تحامل على العرب المسلمين، وتجن على حضارتهم، ومحاولة النيل منها وتجريدها من أفضالها على الحضارة الإنسانية.

وهذا لا يعني أن المستعربين كلهم سواء، وإنّا لا نفرق بين من نزه قلمه وتجرد، وبين من تلاعبت به الأهواء والنزعات فابتعد عن الحياد والموضوعية، ومهما يكن من أمر فإن لهم علينا فضل السبق في هذا المضمار، تأسيساً وتطويراً وتتلمذ الرعيل الأول منا عليهم.

وإذا كان أساتذتنا قد نقلوا إلينا، تدريساً وتأليفاً، ما تلقوه عنهم من علم، وما اكتسبوه منهم من خبرة وتجربة في طور كانت الدراسة فيه للفنون العربية الإسلامية، عمارة وزخرفة، يافعة فتية فإن عهد التلقي هذا قد مضى وانقضى، وإن كان في النفس منه حاجات وحاجات، لأن عودنا قد اشتد وصلب، وإننا أولى بآثارنا من غيرنا، وأكثر فهماً لها، وتفهماً لطبيعتها، لأننا أبناء البيئة التي نمت فيها وترعرت حتى آتت أكلها، ونحن أكثر استيعاباً للتاريخ الذي أحاط بها، واللغة التي كتبت عنها، ورب الدار أدرى بداره وبالذي فيه، وقديماً قالوا: أهل مكة أدرى بشعابها.

ومن يتصفح مدونات الأسلاف يعجب لكم العلماء الذين أنجبتهم أمتنا عبر تاريخها الزاهر حتى يخاله، لولا صدق ما تواتر عنه من أخبار، وما خلص منه من آثار وتواليف، ضرباً من الوهم أو الخيال.. فأين هو تراث علماء أمتي، وبخاصة النادر منه والنفيس؟ إنه في متاحف أوربا ومكتباتها ومجموعات مترفيها الشخصية!!

ولو قدر لباحث يروم البحث في فنون الكتاب ووقع اختياره على أحد الموضوعات، لرسالة ماجستير أو دكتوراه، عن مدرسة العراق العربية في التصوير الإسلامي أو مقامات الحريري المصورة أو فن الواسطي(٥)... فأين

---

(٤) ينظر: الفن الإسلامي...، أبو صالح الألفي، مطبعة دار المعارف الثانية، مصر، ص١٥٦. المشتى، من قصور العرب قبل الإسلام، عيد ضيف العبادي، مجلة التراث والحضارة، العدد الثاني، ص٢٢.

(٥) ينظر: مقامات الحريري المصورة، ناهدة عبد الفتاح النعيمي، بغداد ١٩٧٩، ص٦٣ وما بعدها. المخطوطات العراقية المرسومة في العصر العباسي، د. خالد الجادر، بغداد ١٩٧٢. الواسطي، ... رسام وخطاط ومذهب ومزخرف، د. عيسى سلمان، بغداد ١٩٧٢.

سيجد مادة رسالته؟ ما عليه إلا التوجه نحو أوربا ليجد ضالته فيها، أما العراق موطن تلك الإبداعات ومبدعها فلا أثر لها فيه البتة!!

لقد راح عملاء للغرب وسماسرة يجوبون الديار بحثاً وتنقيراً عن النادر من تراثنا المخطوط والنفيس.. شروه بثمن بخس ليجد طريقه إلى أوربا، فالمكتبة الوطنية بباريس، مثلاً، تحتفظ بنسخة مصورة من كتاب ديسقوريدس تحت رقم (عرب ٤٩٤٧)(٦).

يقول الدكتور داود الجلبي الموصلي عن نسخة من الكتاب حديثةٌ، تحتفظ بها مكتبة جامع الزيواني بالموصل :((من المشتهر في الموصل عند العام والخاص إن هذه النسخة نقلت عن نسخة قديمة كانت في هذه المكتبة نفسها، استنسخها رجل شامي يدعى السيوفي، كان وكيل قنصل في الموصل من قبل فرنسا قبل بضع وثلاثين سنة (من سنة ١٩٢٧)، وأخذ الأصل وترك هذه النسخة الجديدة... وكان قد نقلها عن النسخة القديمة السيد مصطفى الصائغ النقاش، وهو رجل موصلي... معروف بحسن الخط، ومن المولعين بجمع الكتب الخطية فيقتني منها، النفيس والمبتذل ويتاجر بها... لقيته وسألته عن كيفية أخذ وكيل القنصل للنسخة الأصلية فقال: كان هذا الرجل مولعاً بجمع نفائس الكتب، فكان يبتاع ما يبتاع منها، ويكلفني بنسخ ما لا يباع، وسمع بهذا الكتاب فرجا من يونس بك بن عبد الرحمن باشا الجليلي، وكان متولي جامع الزيواني، أن يسمح له باستنساخه فسمح، فكلفني بنقله مع الاعتناء بتقليد صوره وألوانها، وإذا هو كتاب ضخم يستدل من حاله أنه قديم، وكان مكتوباً على الرق، عنيت بخطه وتصويره، ولما كمل أجازني القنصل...، وأخذ الأصل والنسخة الجديدة، وذهب إلى دار يونس بك... وكان أبي وكيلاً على أشغال البك، فلما حضرت النسختان بين يديه أعجبه خطي وتصويري... وقال: نعم الخط، وظهرت عليه علائم المسرة والإعجاب، فلما رأى القنصل ذلك قال للبك: ترون أن هذه النسخة الجديدة أجود فلو أمرتم أتركها للوقف واخذ القديمة، فأجابه إلى ذلك بلا تردد، قال السيد مصطفى: فرأيت الطرفين قد سرا من هذه المبادلة))(٧).

وهكذا استعضنا عن العتيق البالي بما هو جديد، وكلٌ ضحك من غفلة الآخر في سره، والمغبون من بكى في الآخر أسفاً على ما فرط.

لقد جهل أهلنا قدر تراثنا فهان عندهم، باعوه للغرب بثمن بخس، وكانوا فيه من الزاهدين، وإلا بماذا نعلل ما حدث..فهذا عالم أفنى زهرة شبابه، وبقية عمره في طلب العلم وتحصيله، ثقلت كتبه على زوجته فكانت أضر عليها من ضرة، فالإمام الزهري (١٢٤هـ/٧٤١م) ((كان يضع كتبه حوله مشتغلاً بها ، فقالت زوجته : والله لهذه الكتب أشد عليّ من ثلاث ضرائر))(٨) ، ويقول الزبير بن بكّار(٢٥٦هـ /٨٧٠ م) : ((قالت ابنة لأختي

(٦) المخطوطات العراقية المرسومة في العصر العباسي ص٥٧.

(٧) مخطوطات الموصل، بغداد ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م، ص١٧٨-١٧٩.

(٨) تاريخ ابن الوردي، المطبعة الحيدرية ، النجف ، ط٢ ، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م، ج ١ ص ٢٤٩.

لأهلنا : خالي خير رجل لأهله لا يتخذ ضرّة ولا يشتري جارية ، قال : تقول المرأة : والله لهذه الكتب أشدّ عليّ من ثلاث ضرائر))(٩)، لذا عزف البعض عن الزواج ولمّا مات مات اعزبا إيثاراً للعلم ، طلبه وتحصيله وإدامة النظر فيه(١٠)

وعالم ما أن هم بنفض الغبار عن كتاب تناوله من خزانة كتبه حتى انفضت أسرته من حوله..

وعالم ما أن أغمض إغماضته الأخيرة حتى أصبحت كتبه نهباً تتوزعها الأيادي..

وعالم أهملت مكتبته بعيد وفاته وتنوسيت لتصبح مرتعاً خصباً للأرضة تعيث فيها فساداً..

وعالم تحرز لكتبه فأوقفها في حياته على طلبة العلم، وما دار في خلده أن ((ابن السليماني)) حاضر في كل زمان ومكان..

وابن السليماني هذا عهد اليه ديوان الأوقاف سنة ١٢٦٥هـ (١٨٤٨م) تولي ثلاث مكتبات كبرى في مصر ، خازناً وأميناً، لقاء راتب شهري قدره خمسة وعشرون قرشاً ((فصار هذا الخازن الجاهل الفقير المؤتمن على تلك الذخائر الغالية دون رقيب عليه يبيع قصب السكر في زاوية تحت سلّم مدرسة السلطان حسن ، فكان يضع بجانبه طائفة من مخطوطات تلك المكاتب الثلاث يبيعها بيع قصب السكر ويتصرّف بأثمانها، فتأتى له ان يجازف في زمن قصير بجانب كبير من تلك الجواهر اليتيمة ليسد بها جوعه وجشعه))(١١) ، ويهوّن علينا فيليب دي طرازي (١٢٨٢– ١٣٧٥هـ/١٨٦٥–١٩٥٦م) أمر ((ابن السليماني)) وفعلته الحمقاء بتراثنا وهو يحدثنا بما هو اشدّ وأنكى قائلاً: ((وكان خدمة بعض المساجد يحملون الى الأسواق سلالاً مملوءة من المخطوطات القديمة يبيعونها للبقّالين واللحّامين والعطّارين وباعة الفاكهة كي يلفّوا سلعهم بأوراقها(١٢)، وقد يصاب البعض بالدوار إن قلت : إن لهذه الظاهرة المؤسفة أصل ، ليس في عصور التخلّف والإنحطاط وتكالب الأعداء وإنما في عصر بلغت فيه الحضارة عندنا ذروة سنامها ، يقول ياقوت الحموي (٥٧٤–٦٢٦هـ / ١١٧٨–١٢٢٩م) : في مادة ((مسكة)) من قرى عسقلان ، ينسب اليها جماعة بمصر منهم عبد الله بن خلف المسكي ، ابو محمد المصري جمع تاريخاً لمصر أجاد فيه ومات وهو في مسوداته قد عجز ان يبيضه لفقره فبيع على العطّارين لصرّالحوائج كأن لم يكن بمصر من يعينه على تبيضه ولا ذو همّة يشتريه فيبيضه ، وبالله المستعان (١٣) وابو محمد المصري هذا سمع من ابي طاهر السّلفي الحافظ (٤٧٨–٥٧٦هـ / ١٠٨٥–١١٨٠م) مما يعطي انطباعاً بأن حياة المسكي قد تزامنت جزئياً مع حياة السلفي وياقوت الحموي .

وتراث الإسلام العماري ما كان بأحسن حالاً عند أهلنا من تراثه المخطوط، فلنعرّج عليه:

---

(٩) تارخ بغداد او مدينة السلام الخطيب البغدادي، طبعة دار الفكر ، بيروت ، ج٨ ص٤٧١

(١٠) ينظر : العلماء العزّاب الذين آثروا العلم على الزواج، عبد الفتاح ابو غدة، بيروت ، ط٥ ، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م

(١١)خزائن الكتب العربية في الخافقين، فيليب دي طرازي، بيروت ١٩٤٧، م١ ص١٩٠.وينظر: تراثنا بين ماض وحاضر ص٣٩.

(١٢) خزائن الكتب العربية في الخافقين م١ ص١٩٠

(١٣) معجم البلدان ، بيروت ١٣٧٤هـ، م٥ ص١٢٨.

وإذا كان الأتراك قد نسفوا باب الحلبة (٦١٨هـ/١٢٢١م) أحد أبواب بغداد الشرقية، عند انسحابهم من بغداد عام ١٩١٧(١٤)، فأصبح أثراً بعد عين، وإن محاولة الإنكليز عند احتلالهم بغداد سنة ١٩١٧، هدم مئذنة جامع الخليفة (٦٧٨هـ/١٢٧٩م) باءت بالفشل(١٥)، وأجهضت محاولتهم انتزاع محراب الخاصكي بحدود سنة ١٩٢٥ لنقله إلى لندن(١٦)، فإن الأوقاف هدمت قبة الجامع النوري بالموصل (٥٦٦-٥٦٨هـ/١١٧٠-١١٧٢م) عام ١٩٤٤(١٧)، وابتنت أخرى مغايرة لها في الشكل، وفي سنة ١٩٤٥، وبحجة توسيع شارع الرشيد، هدمت المدرسة المرجانية (٧٥٨هـ - ١٣٥٦م)(١٨)، على أهميتها، بينما أوقف العمل سنة ١٩٧٤ بجسر باب المعظم في بغداد لظهور بقايا بنائية تحت مياه دجلة من العهد البابلي الحديث عند التنفيذ فحول إلى موقع آخر غير بعيد عن الموقع المعد له سلفاً(١٩)، وليس لدي ما أقوله سوى الدعوة لزيارة الموقع بعدما أعادت الآثار بناء البقايا لترتفع بارتفاع دعامات الجسر، وقد تحولت إلى مزار تقدم له الهدايا والنذور!!

وفي الشام ولإجراء توسع في طريق يمر بين المدرسة النورية بدمشق (٥٦٧هـ/١١٦٩م) وأعمدة لبقايا معبد روماني، هدم عام ١٩٦١ إيوان المدرسة الوحيد والفريد، وأبقي على الأعمدة!!(٢٠).

والذي يبدو أن لباني ما قبل الإسلام من القدسية ما ليس لمبانينا الإسلامية، مساجد ومدارس ومشاهد...؟

فالتقادم وعوارض الطبيعة وعبث الإنسان وفي غياب الوعي الاثاري سقطت قباب وهدمت قباب واعيد بناؤها على غير ما كانت عليه بحجة الصيانة، والصيانة، على قدر فهمي البسيط والمتواضع، تعني: الحفاظ على الاثر على ما هو عليه قدر الامكان دونما تغيير.

ويظن البعض ظنوناً خاطئة بأن في هذه الأعمال تعظيم لشعائر الدين، واكتساب أجر من الله تعالى، ومحمدة الناس، وما درى أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قد نهى عن البناء على القبور بأحاديث صحيحة لا يتطرق إليها شك أو يعتريها وهن(٢١).

لقد نجم عن هذه الأعمال ضياع الكثير من معالمنا التاريخية، وفقدنا حلقة أو حلقات في سلسلة تطور العمارة العربية الإسلامية وفنونها الجمالية.

---

(١٤) اشتهر بأسم ((باب الطلسم)) ينظر: الزخارف الجدارية في آثار بغداد، خالد خليل الأعظمي، بغداد ١٩٨٠، ص٤٨.

(١٥) نفسه ص٩١ حاشية ٣.

(١٦) تاريخ مساجد بغداد وآثارها، محمود شكري الآلوسي، تهذيب محمد بهجة الأثري، بغداد ١٣٤٦هـ، حاشية ص٣٨. المحاريب العراقية...، نجاة يونس التوتونجي، بغداد ١٩٧٦، ص٥٦.

(١٧) جوامع الموصل في مختلف العصور، سعيد الديوه جي، بغداد ١٣٨٢هـ/١٩٨٢م، ص٢٧.

(١٨) الزخارف الجدارية في آثار بغداد، ص١٠١، حاشية ٣.

(١٩) ينظر: الكشاف الأثري في العراق، د. قحطان رشيد صالح، بغداد ١٩٨٧، ص١٤٥.

(٢٠) العمارة العربية في مصر الإسلامية، عصر الولاة، د. فريد شافعي، مصر ١٩٧٠، ٢٦/١.

(٢١) ينظر: موقف الإسلام من البناء على القبر في: المشاهد ذات القباب المخروطة في العراق، علاء الدين أحمد العاني، بغداد ١٩٨٢، ص٢٤-٢٨.

ومما يؤسف له أن طراز القبة المخروطة المقرنصة لم يعد له وجود في محافظة الأنبار بعدما هدمت قباب: علي نور الدين في هيت، والشيخ حديد والشيخ نجم الدين وأولاد الشيخ أحمد الرفاعي وأعيد بناؤها مجدداً على غير ما كانت عليه.

قبة علي نور الدين

تقع القبة في هيت، خارج القلعة غير بعيد عنها، وتنسب إلى علي نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي(٢٢)، ولا يعرف لنور الدين ابن حمل اسم ((علي)) فضلاً عن أن يكون قد توفي في هيت ودفن فيها تحت هذه القبة، وليس بين أيدينا من حمل اسم ((علي نور الدين)) سوى ((الملك الأفضل نور الدين علي بن المظفر محمود..)) غير أنه توفي بدمشق سنة ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م، وحمل إلى حماه ليدفن فيها(٢٣).

والقبة كانت تزدان من الداخل ببلاطات مزججة نقلت إلى بغداد، وهي معروضة حالياً في القاعة الإسلامية الثانية بالمتحف العراقي، وقد تضمنت آيات قرآنية وكتابة تذكارية نصها: ((... تربة الشيخ الصالح العابد الورع ... شرع في عمارة هذا المشهد في سنة ست وعشرين وسبعماية..))، وإذا ثبت عائدية النص إلى البناء الأصل، فإن هذا يعني تزامن قباب الشيخ حديد والشيخ نجم الدين وأولاد الرفاعي وهذه القبة، أي أن هذه القباب جميعاً تعود إلى القرن الثامن الهجري للتقارب في المظهر العام، بحيث تكاد تشكل مجموعة واحدة لطراز خاص ساد المنطقة، فضلاً عن أن مادة البناء، الحجر غير المهندم والجص للربط واللصق، والطلاء لتلافي العيوب الناجمة عن البناء، اعتمدت في هذه القباب، وغريب عدم التفات دارسي قباب حديثة إلى هذه القبة، فلم يولوها بعض اهتمامهم على الرغم من أنها تقع ضمن دائرة بحوثهم(٢٤).

وكان لدائرة الآثار مخاطبات مع وزارة الأوقاف والشؤون الدينية حول صيانة قبة علي نور الدين وإجراء الإصلاحات عليها وبإشراف مفتشيتها بالأنبار (كتاب الآثار ٣٤٦٩ في ١٩٧٧/٣/١٦ والتأكيد عليه بكتابها ١٦٢٢٩ في ١٩٧٧/١١/٦)، وأوفدت (بكتابها ١٨٩٣ في ١٩٧٨/٢/٢٤) السيد مظفر عزت الشيخ قادر لإجراء الكشف الموقعي على القبة، واعتذرت (بكتابها ٦٤٣٨ في ١٩٧٩/٤/٢١) عن إعادة البلاطات المزججة التي كانت تزدان بها القبة من الداخل، وكان ممثلها لأعمال صيانة القبة المهندس علاء حسين، وعلى ضوء كتاب مفتشية الأنبار (٢١ في ١٩٨٨/٢/٢٠) أعطت المؤسسة العامة للآثار والتراث، الصيانة الأثرية (كتابها ١٥٤٤/٧/٣/٢٠ في ١٩٨٨/٣/٥) عدم ممانعتها من إعادة بناء القبة بموجب المخططات الأصلية وبأشراف مفتشيتها بالأنبار، وحصلت موافقة السيد وزير الأوقاف على إعادة بناء القبة (١٠٤٦٧ في ١٩٨٨/١٢/١٣) وموافقته على المتبرع منير راشد شكر الجبوري للإنفاق

(٢٢) هيت فقي إطارها القديم والحديث، رشاد الخطيب الهيتي، بغداد ١٩٦٦، ج١ ص٣٣.

(٢٣) تاريخ ابن الوردي، ج٢ ص٣٤٠.

(٢٤) القباب العباسية في العراق (رسالة ماجستير على الآلة الكاتبة)، عادل نجم عبدو، بغداد ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٧م. القباب المخروطية في العراق، عطاء الحديثي وهناء عبد الخالق، بغداد ١٩٧٤.

على أعمال البناء (كتاب الأوقاف ٩١٢ في ١٩٨٩/٥/٦)، ومنحت بلدية الأنبار (كتابها ١١٢٧٢ في ١٩٨٩/٧/٥) إجازة بناء القبة، وتضمن كتاب أوقاف الأنبار (٢٤٦٣ في ١٩٩٠/١٢/٩) عدم تغيير معالم القبة.

ومما يؤسف له أن القبة هدمت وأعيد بناؤها على غير ما كانت عليه، وتسلمت أوقاف الأنبار (بكتابها ٩٠١ في ١٩٩١/٨/١٥) المبنى من السيد منير راشد شكر الجبوري.

قباب حديثة

أعلنت مديرية الآثار العامة عن أثرية قباب الشيخ نجم الدين والشيخ حديد وأولاد الرفاعي بكتابها المرقم ٣٨٦٣ في ١٩٧٣/٤/١٠ ومرفقه البيان رقم (٧) لسنة ١٩٧٣، واعتبارها من المواقع التأريخية على وفق أحكام المادة الثامنة من قانون الآثار رقم (٥٩) لسنة ١٩٣٦.

وعلى الرغم من ذلك فقد هدمت قبة الشيخ حديد وقبة الشيخ نجم الدين وأعيد بناؤهما (١٩٨٣، ١٩٨٦) على غير ما كانتا عليه في غفلة منا ومن الزمن!! أما قبة أولاد الرفاعي فلا أعرف متى سقطت أو هدمت، وإن كان ذلك قبل سنة ١٩٦٧، أي قبل الإعلان عن أثريتها.

وهذه القباب جميعها تقع في جانب حديثة الشامي على سمت واحد بموازاة الفرات.

قبة الشيخ حديد

عرفت هذه القبة عند أهالي حديثة باسم قبة الشيخ حديد، ويبدو إنهم توارثوها فتناقلوها جيلاً بعد جيل، والحقيقة إننا لا نعرف من هو الشيخ حديد، ويراه هرتسفلد بأنه محمد بن موسى الكاظم(٢٥) وعلى الرغم من تضارب الأقوال في موضع دفن محمد العابد بن موسى الكاظم، فهو دفين قبة إمام الدور استناداً إلى لوح رخامي غير منتظم يعود إلى سنة ٨٧١هـ/ ١٤٦٦م(٢٦)، ثبت على يمين المدخل، وقول آخر بأنه مدفون في نواحي ((يزد))(٢٧)، ويقال بأن قبره في ((شيراز))(٢٨)، ويقول يونس الشيخ إبراهيم السامرائي ((الحديديون من السادة الحسينية، سمو بـ (الحديدين) نسبة إلى جدهم الأعلى السيد محمد شمس الدين عجان الحديد الحسيني دفين بلدة حديثة الفرات))(٢٩)، ابن السيد حسين بن السيد الشريف ولي الله حديد دفين بلدة الرمادي(٣٠)،

---

(٢٥) ((حديثة الفرات))، هرتسفلد، دائرة المعارف الإسلامية (ترجمة إبراهيم زكي خورشيد) م٧ ص٣٤٨.

(٢٦) Amurath to Amurath, Bell, Gertrude lo wthian, London 1911, P.214.

(٢٧) تنقيح المقال في أحوال الرجال، الماقتاني، النجف، ج٣ ص١٩٢-١٩٣.

(٢٨) نزهة القلوب، حمد الله المستوفي، (فارسي) لندن ١٩٢٨، ص١١٦، شد الأزرار وحط الأوزار عن زوار المزار، معين الدين شيرازي، طهران ١٣٢٨ شمسية، ص٢٩٢. تنقيح المقال، ج٢ ص١٩٢-١٩٣، تحفة العالم في شرح خطبة المعالم، الطباطبائي، النجف ١٣٥٤هـ، ج٢ ص٣١.

(٢٩) القبائل والبيوتات الهاشمية في العراق، بغداد ١٩٨٨، ص٣٤.

(٣٠) المصدر نفسه.

وتحمل القبة الجديدة كتابة نصها: ((مرقد الصميدع السيد محمد الملقب عجان الحديد وولديه أحمد وعبد الرحيم وخادمه عبد ريحان وهو من ذرية الإمام موسى الكاظم... في القرن السابع الهجري)).

لقد هدمت القبة وأعيد بناؤها على غير ما كانت عليه من قبل وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، وأوكلت المهمة إلى المقاول زبار محمد زغير، الذي أتم العمل سنة ١٩٨٣.

وغريب أمر كامل محمد حيدر(٣١) إذ زعم بأنه درس هذه القبة وقبة الشيخ نجم الدين ميدانياً، وضمن رسالته للدكتوراه (جامعة بغداد، كلية الآداب، قسم الآثار ١٩٩٠) صوراً لهما، في الوقت الذي لم يعد لهما وجود (١٩٨٣، ١٩٨٦)، مدعياً بأنها من تصويره، وقد تأكد لي بأنه استنسخ الصور ونسخ المادة عمن سبقه ضارباً عرض الحائط بالأمانة العلمية التي يجب أن يتحلى بها طالب العلم!!

قبة الشيخ نجم الدين

عرفت هذه القبة بهذه التسمية عند سكان حديثة، ولكن من هو الشيخ نجم الدين؟ يقول هرتسفلد ((قيل أنه أحد من رافقوا نوح في فلكه))(٣٢)؟!!، ويعقب السيد فرحان الحديثي قائلاً: ((إن هرتسفلد سئل الأهالي عن الشيخ نجم الدين فقالوا له أنه من أهل السفينة، وهم يقصدون سفينة جرحى معركة صفين التي نزلت في الفرات من صفين إلى الأنبار فالكوفة، فظن هرتسفلد أنهم يقصدون سفينة نوح))(٣٣)، والحقيقة إن السيد الحديثي لم يوثق كلامه فيعطي ولو مصدراً واحداً، ولم أتمكن من وضع اليد على أي نص يؤيد ما هو شائع على ألسنة الناس حول أصحاب السفينة باستثناء ما ذكره القاضي عياض من أن عبد الله بن المبارك وأثناء منصرفه من الغزو توفي في سفينة بالفرات سنة ١٨١ هـ/ ٧٩٧م قبالة هيت فدفن فيها(٣٤)، وتوجد كتابة محدثة في المبنى الجديد للشيخ نجم الدين تذهب إلى أنه من أحفاد إبراهيم المرتضى بن موسى الكاظم.

والقبة الأصلية هدمت وأعيد بناؤها على غير ما كانت عليه من قبل وزارة الأوقاف والشؤون الدينية سنة ١٩٨٦ وبإشراف المهندس خيري محمود.

قبة أولاد الرفاعي

عرفت هذه القبة بهذه التسمية على الرغم من أن الشيخ أحمد بن علي بن أحمد الرفاعي المتوفى سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م ((لم يعقب وإنما العقب لأخيه))(٣٥)، ويبدو أن القوامين عليها قد تنبهوا لذلك فأسموها: مقام السيد أو الشيخ أحمد الرفاعي، مما يعطي انطباعاً بأن التسميات تطلق بشكل عشوائي وإلا فإن المقام مأخوذ من الإقامة، فهل

(٣١) المقرنص في العمارة العباسية في العراق (رسالة دكتوراه في الآثار، على الآلة الكاتبة) بغداد ١٤١١هـ/١٩٩٠.

(٣٢) ((حديثة الفرات))، ص٣٤٨-٣٤٩.

(٣٣) تاريخ الحديثة، بغداد ١٩٨٨، ج١ ص١٦٦.

(٣٤) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ج١ ص٣٠٩.

(٣٥) تاريخ ابن الوردي، م٢ ص١٣٢.

أن الشيخ أحمد الرفاعي قد مر بحديثة وأقام بهذا الموضع؟ والمقامات تخلو من القبور بينما تضمن هذا المقام عدة قبور!

والقبة الأصلية سقطت وأحلت محلها قبة نصف كروية، ولا نعرف إن كانت قد سقطت أو هدمت، ومتى كان ذلك، وإن كان قبل عام ١٩٦٧، وقد جرى تغيير في البدن الحامل للقبة من الخارج، ومن الداخل في أعلاه لتكييفه بغية إقامة القبة المحدثة.

والقبة كما يراها بعض الباحثين تعود إلى القرن السادس الهجري أو أواخره أو أوائل السابع(٣٦).

وفي الوقت الذي تتظافر الجهود المخلصة وتتواصل من أجل الحفاظ على تراثنا، وإذا بأعمال نبش وتخريب تمتد إلى مواقعنا الأثرية لاستلاب ما تبطنه من كنوز ولتجد طريقها وبثمن بخس حفنة دولارات إلى سماسرة الآثار ومهربيها.

وإذا كان شرع الإسلام الحنيف قد أوجب قطع يد السارق إن توافرت شروط القطع فإن لحامل معول نبش وتخريب مواطن الحضارة، وسرقة الآثار الخطية واللقى الأثرية والتحف الفنية وتهريبها لتستقر في مجموعات الأجانب الخاصة ومتاحفه العامة شيئاً آخر غير القطع..

إن ظاهرة العبث بالآثار ظاهرة مؤسفة لا بل ومحزنة، تنبه لها أسلافنا فأولوها اهتمامهم، يقول أبو الهيثم عبد الواحد بن سليمان المعري، المتوفى سنة ٤٠٥هـ / ١٠١٤م، وقد وقف على أطلال (سياث) معرة النعمان:

مررت بربع من سياث فراعني به زجل الأحجار تحت المعاول

تناولها عبل الذراع كأنما رمى الدهر فيما بينهم حرب وائل

أتتلفها؟ شلت يمينك! خلها لمعتبر أو زائر أو مسائل

منازل قوم حدثتنا حديثهم ولم أر أحلى من حديث المنازل(٣٧)

ويقول عبد اللطيف البغدادي، المتوفى سنة ٦٢٩هـ / ١٢٣١م: ((وما زالت الملوك تراعي بقاء هذه الآثار وتمنع من العيث فيها والعبث بها، وإن كانوا أعداء لأربابها، وكانوا يفعلون ذلك لمصالح منها: لتبقى تأريخاً يتنبه بها على الأحقاب، ومنها أنها تكون شاهدة للكتب المنزلة، فإن القرآن العظيم ذكرها وذكر أهلها، ففي رؤيتها خبر الخبر وتصديق الأثر، ومنها أنها مذكرة بالمصير ومنبهة على المآل، ومنها أنها تدل على شيء من أحوال من سلف

(٣٦) المرشد إلى مواطن الآثار والحضارة، طه باقر وفؤاد سفر، (الرحلة الأولى) بغداد ١٩٦٢، ص١٩. القباب العباسية في العراق، ج١ ص١٢٤، ١٢٧.

(٣٧) معجم البلدان، ياقوت الحموي، م٣ص٢٩٢.

وسيرتهم وتوفر علومهم وصفاء فكرهم وغير ذلك، وهذا كله مما تشتاق النفس إلى معرفته وتؤثر الإطلاع عليه))(٣٨).

وعليه فإننا جميعاً مسؤولون كل من موقعه، وعلى وفق إمكاناته، وبخاصة الأعلام بقنواته الثلاث المرئية والمسموعة والمقروءة، لأنه تراث أمة نهلت منه أمم وشعوب على طريق تقدمها حين حزمت أمرها على تدارك ما فاتها واللحاق بركب من تقدمها علماً وفكراً وفناً وصنعة، ولأن أجيالنا لن ترحم من يتلكأ أو يداري حين يغض الطرف ويلوذ بالصمت.

ولا بأس من مؤتمرات تعقد وندوات في هذا القطر العربي وذاك، واستضافة وفود، وإيفاد مبعوثين، للتعريف بآثارنا، وكيف استلبت، ولا بأس من استثارة مشاعر أطفال الغرب وأحاسيسهم، والمتنورين من مثقفيه عبر بطاقات بريدية وملصقات جدارية تحمل صوراً لأبرز آثارنا المحتجنة في متاحف الغرب، وعبارات تتسم بالتركيز والوضوح، يصوغها أصحاب الاختصاص في الآثار والتربية وعلم النفس، ويتزامن إرسالها وأعياد الميلاد المجيد ويوم عربي لآثارنا المستلبة، ولا بأس من أن يكون تحت مظلة الجامعة العربية، لأن أمتنا وإن ابتدأت صحوتها، إلا أنها لن تنهض بعد من كبوتها، ومتى ما نهضت وأخذت بأسباب القوة والمنعة والتمكن، وامتلكت زمام أمرها فأرهبت عدوها عند ذاك سيكون لكل حادث حديث، وسنسترد بعون الله وتوفيق منه، كامل حقوقنا المستلبة بما فيها الآثار.

أما الآن وحالات العالم ومتغيراته في السياسة والاقتصاد، وما نحن فيه من فرقة وتنافر فإن الموقف يتطلب تخطيطاً مرحلياً، يتصاعد تدريجياً كلما تقدم الزمن ولاح في الأفق ما ينبئ عن تغير في ميزان القوى لصالحنا.

هذا ما قدر لي تقديمه فإن أصبت فمن الله وبتوفيق منه، وإن أخطأت فما أنا بأول سار غره قمر.

مصادر البحث ومراجعه

١- الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، عبد اللطيف البغدادي، مصر ١٢٨٦هـ.

٢- بوابة عشتار، كولد يفاي، تعريب د. علي يحيى منصور، بغداد ١٩٨٥م.

٣- تاريخ ابن الوردي، النجف .١٩٦٩

٤- تاريخ بغداد او مدينة السلام، الخطيب البغدادي، دار الفكر ، بيروت.

٥- تاريخ الحديثة، فرحان الحديثي، بغداد .١٩٨٨

٦- تاريخ مساجد بغداد وآثارها، محمود شكري الآلوسي، تهذيب محمد بهجة الأثري، بغداد ١٣٤٦هـ.

٧- تحفة العالم في شرح خطبة المعالم، الطباطبائي، النجف ١٣٥٤هـ.

٨- تراثنا بين ماضٍ وحاضر، بنت الشاطئ، د. عائشة عبد الرحمن، مصر ١٩٧٠م.

(٣٨) الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، مصر ١٢٨٦هـ، ص٣٤.

٩- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، القاضي عياض، تحقيق د. احمد بكير محمود،بيروت ، منشورات دار مكتبة الحياة.

١٠- تنقيح المقال في أحوال الرجال، المامقاني، النجف.

١١- جوامع الموصل في مختلف العصور، سعيد الديوه جي، بغداد ١٩٨٢م.

١٢- حديثة الفرات، هرتسفلد، دائرة المعارف الإسلامية (ترجمة ابراهيم زكي خورشيد).

١٣- خزائن الكتب العربية في الخافقين ، فيليب دي طرازي، بيروت .١٩٤٧

١٤- الدولة العثمانية، عوامل النهوض وأسباب السقوط، علي محمد محمد الصلابي، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

١٥- الزخارف الجدارية في آثار بغداد، خالد خليل الأعظمي، بغداد ١٩٨٠م.

١٦- السلطان عبد الحميد الثاني، حياته وأحداث عهده، أورخان محمد علي، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

١٧- شد الأزار وحط الأوزار عن زوار المزار، معين الدين شيرازي، طهران، ١٣٢٨ شمسية.

١٨- العراق في التاريخ القديم، د. عامر سليمان، الموصل ١٩٩٣م.

١٩- العلماء العزّاب الذين آثروا العلم على الزواج، عبد الفتاح ابو غدة، بيروت ، ط٥، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

٢٠- العمارة العربية في مصر الإسلامية، عصر الولاة، د. فريد شافعي، مصر ١٩٧٠م.

٢١- الفن الإسلامي..، ابو صالح الألفي، طبعة دار المعارف الثانية، مصر.

٢٢- القباب العباسية في العراق، عادل نجم عبدو، (رسالة ماجستير على الآلة الكاتبة)، بغداد ١٣٨٥هـ/.١٩٦٧

٢٣- القباب المخروطية في العراق، عطاء الحديثي وهناء عبد الخالق، بغداد .١٩٧٤

٢٤- القبائل والبيوتات الهاشمية في العراق، يونس الشيخ ابراهيم السامرائي، بغداد .١٩٨٨

٢٥- الكشاف الأثري في العراق، د. قحطان رشيد صالح، بغداد ١٩٨٧م.

٢٦- المحاريب العراقية...، نجاة يونس التوتونجي، بغداد ١٩٧٦م.

٢٧- المخطوطات العراقية المرسومة في العصر العباسي، د. خالد الجادر، بغداد ١٩٧٢م.

٢٨- مخطوطات الموصل، د. داود الجلبي الموصلي، بغداد ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م.

٢٩- المرشد إلى مواطن الآثار والحضارة، طه باقر وفؤاد سفر، (الرحلة الأولى)، بغداد .١٩٦٢

٣٠- المشاهد ذات القباب المخروطة في العراق، علاء الدين احمد العاني، بغداد .١٩٨٢

٣١- المشتى، من قصور العرب قبل الإسلام، عيد ضيف العبادي، مجلة التراث والحضارة، بغداد، العدد الثاني.

٣٢- معجم البلدان، ياقوت الحموي، بيروت ١٣٧٤هـ.

٣٣- مقامات الحريري المصورة، ناهدة عبد الفتاح النعيمي، بغداد ١٩٧٩م.

٣٤- المقرنص في العمارة العباسية في العراق، كامل محمد حيدر، (رسالة دكتوراه في الآثار، على الآلة الكاتبة)، بغداد ١٤١١هـ.

٣٥- نبوخذ نصر الثاني (٦٠٤-٥٦٢ ق.م)، حياة إبراهيم محمد، بغداد ١٩٨٣م.

٣٦- نزهة القلوب، حمد الله المستوفي، (فارسي) لندن ١٩٢٨، شد الأزرار وحط الأوزار عن زوار المزار، معين الدين شيرازي، طهران ١٣٢٨ شمسية.

٣٧- هيت في إطارها القديم والحديث، رشاد الخطيب الهيتي، بغداد .١٩٦٦

٣٨- الواسطي... رسام وخطاط ومذهب ومزخرف، د. عيسى سلمان، بغداد ١٩٧٢م.